جواب سؤال مشرق الأرض

د. محمد دودح
باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم: ٤١. ولم يكن أحد زمن التنزيل يعلم أن الإنسان قد يفسد النظام البيئي العالمي، وفي قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم: ٤١؛ ورد التعميم ليشمل كل سطح الأرض؛ برا وبحرا، في التعبير (فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، ولفظ (الْفَسَادُ) عام؛ يمتد ليشمل الفساد البيئي نتيجة لسوء صنيع الناس بها، ووفق تقارير الخبراء سيؤدي تزايد اضمحلال طبقة الأوزون التي تدفع خطر الأشعة فوق البنفسجية إلى كوارث بيئية، والاحتباس الحراري تعبير معاصر يقدم مثالا يؤكد دلالة القرآن في إمكان الفساد البيئي للعالم كله نتيجة النشاط الإنساني.

فقد إبتكر أرينيوس مصطلح الاحتباس الحراري Global Warning عام ١٨٩٦م، وتوقع أن الوقود الحفري المحترق سيزيد من كميات ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي وأنه سيؤدي إلى زيادة درجات حرارة الأرض؛ مثلما يُعرف بتأثير دفيئة النبات Greenhouse effect، فإن أشعة الشمس تتغلغل وتسخن الداخل إلا أن الزجاج يمنعها من الرجوع إلى الهواء المعتدل البرودة في الخارج، واستنتج أنه في حالة تضاعف تركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي فإننا سنشهد ارتفاعا بمعدل ٤ إلى ٥ درجات مئوية في درجة حرارة الكرة الأرضية؛ ويقترب ذلك على نحو ملفت للنظر من توقعات اليوم، وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهر اختلال في مكونات الغلاف الجوي نتيجة النشاطات الإنسانية وتقدم الصناعة، ونتيجة لزيادة معدلات العوادم الصناعية أصبحنا نلاحظ الآن اتضاح ظاهرة الدفيئة وتغير المناخ، فتركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي أصبح أعلى بحوالي ٣٢% عما كان عليه تركيزه قبل الثورة الصناعية، وحسب تقرير اللجنة الدولية لمراقبة التغيرات المناخية قد ارتفعت درجة الحرارة ما بين ٠,٤ – ٠,٨°م خلال القرن الماضي، ويتوقع الخبراء أن يزداد ارتفاع سطح البحر إلى ٨٨ سنتمتراً بحلول عام ٢١٠٠ الأمر الذي يهدد حياة ١٠٠ مليون إنسان يعيشون على أراضي منخفضة، ناهيك عن تزايد الإصابة ببعض الأمراض كالملاريا نتيجة لتزايد تكاثر البعوض الناقل لها في الجو الحار، وقد نبهت هذه التحذيرات الدول للتداعي إلى الاجتماع في محاولة لتجنب الخطر من خلال اتفاقيات ملزمة كان أبرزها معاهدة كيوتو Kyoto Protocol الذي وافقت عليه كل الدول الصناعية الكبرى إلا الولايات المتحدة الأمريكية ذات المسئولية الأعظم في تخريب المناخ، ولكن مع توالي الأعاصير وتزايد عنفها يوما بعد آخر يدفع سكانها الأبرياء الثمن، وكل ذي حس إنساني تؤلمه المشاهد المروعة يواسي المنكوبين وينتظر غد تتكاتف فيه أيدي الجنس البشري جميعا للعيش بسلام وبناء عالم يخلو من العنصرية والأطماع والاستكبار، والأمل على الأقل أن يُستجاب لتحذيرات الخبراء، وتدل الدراسات الحديثة لتاريخ الأرض على أنها كانت ذات يوم مليئة بالغازات السامة، ثم انخفضت نسبتها تدريجياً وتم إصلاح هذا الخلل وإلا ما كان للحياة أن تنشأ على الأرض، واليوم ازدادت نسبة التلوث فنجد العلماء يطلقون الصيحات المحذرة ألا يلوّثوا هذه الأرض، وقد كشف القرآن الكريم هذه الحقيقة المستترة في أعماق التاريخ فأكد أن الأرض كانت ذات يوم في الماضي غير صالحة للحياة فأصلحها الله تعالى، وأمرنا ألا نفسد فيها وإلا عمت الكوارث بسبب بشري لا بيئي، فقال تعالى: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) الأعراف: ٥٦، وفي مؤتمر باريس ٢ الذي عقد في مطلع العام ٢٠٠٧ واجتمع فيه أكثر من ٥٠٠ عالم من مختلف أنحاء العالم خرجوا بنتائج أهمها أن الفساد البيئي والتلوث قد شمل البر والبحر وحتى البشر والنبات والحيوان، وأن الإنسان هو المسئول عن هذا

الإفساد، وأن هناك إمكانية للرجوع إلى النسب الطبيعية لغاز الكربون في الغلاف الجوي، والعجيب أن القرآن لخَّص لنا هذه النتائج بآية واحدة فقط تشير إلى ظهور هذا الفساد في البر والبحر بسبب تدخل الإنسان، يقول تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الروم: ٤١.

وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ ١٨ الكهف: ٩٠، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ الكهف: ٨٦؛ يدور الحديث عن موضعين على سطح الأرض يمثلان أقصى طرفين في العالم القديم يتميزان بخصائص جغرافية تتفق مع ما عرف حديثا وكان مجهولا زمن التنزيل، فالسير شرقا بحذاء الساحل يوصلك إلى المنطقة المتجمدة شمالا حيث تقطن شعوب الإسكيمو وسواها وحيث تطلع الشمس ولا تغيب كل الصيف؛ وهذا الحال يستقيم مع التعبير: (وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا) إذا حملناه على دوام طلوع الشمس بلا مغيب يسترها عن الأنظار بخلاف بقية المناطق، وبالمثل في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾؛ لفظ (مغرب) اسم مكان، وتعبير (مَغْرِبَ الشَّمْسِ) إذن أي موضع غروبها كما تبدو للناظر من الموضع الذي وصل إليه ذو القرنين في فتوحاته جهة الغرب حيث منتهى اليابسة؛ لا يليها سوى البحر، وبالتحليل الدلالي علميا بغض النظر عن تحديد شخصية ذي القرنين تاريخيا يدل السياق أنه اعتمد على اتجاه شروق وغروب الشمس يوميا لمعرفة جهتي الشرق والغرب ولم توقفه سوى الحواجز الطبيعية الذي ينتهي غربا بالمحيط الأطلنطي Atlantic Ocean حيث تبدو الشمس تغرب فيه، والتعبير (وَجَدَهَا تَغْرُبُ) منسوب لقائد قد بلغت طموحاته في الغزو تكوين إمبراطورية لا تغرب عن أراضيها الشمس، والفعل (تَغْرُبُ) قائم إذن على ملاحظته اليومية ومعاونيه القائمة على النظر حيث انقطع به السير عند ساحل المحيط الغربي، والنبأ (فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ) وصف لظاهرة تلازم المحيط الوارد سياقا بالتضمين، والمعنى إذن للتعبير الوارد على سبيل الإجمال: (وجدها تغرب في مرأى العين في محيط ذو عين حمئة)، والحمئة والحامية قراءتان؛ أي يطفح قاعه بمادة ملتهبة وقاتمة، وهي تطابق ما يطرحه قاع المحيط الأطلنطي بالفعل؛ وخَصُّه بالاختيار يتفق مع كونه الشق الأعظم والأول عند تجزأ القارات، وطرح مواد باطنية ملتهبة تصبح قاتمة بالتبريد في قاع المحيط يدل على توسعه باستمرار، وهذه بالفعل مأثرة علمية.

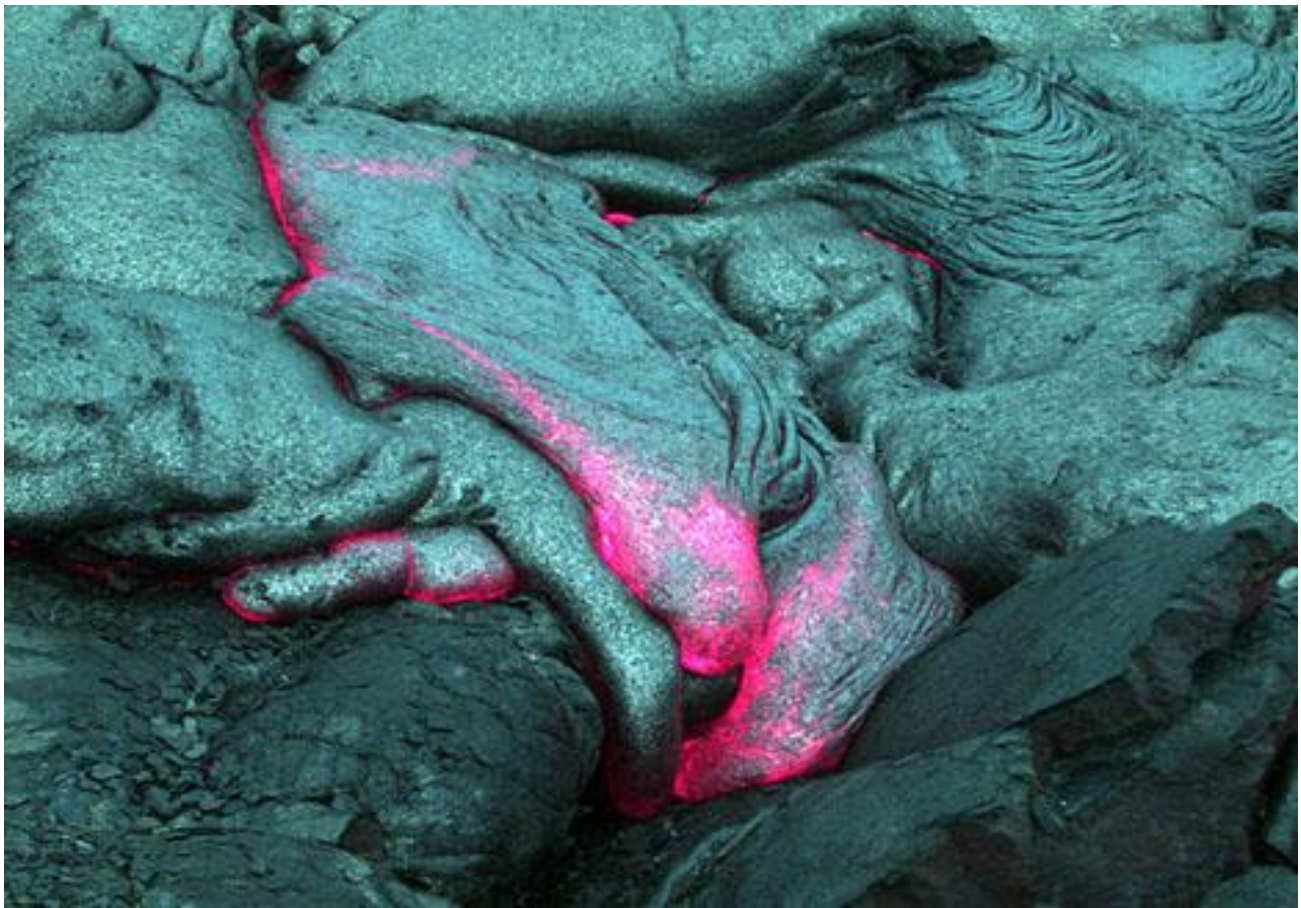

وعلى هذا اتفق الجمع الغفير من المفسرين سلفا وخلفا، قال البيضاوي: "بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك.. ولذلك قال (وجدها تغرب)، ولم يقل (كانت تغرب)"، وقال الألوسي: (مَغْرِبَ الشَّمْسِ) أي منتهى الأرض من جهة المغرب..، ووقف كما هو الظاهر على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس"، وقال سيد قطب: "ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق، وهو يختلف بالنسبة للمواضع..، وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة..، والظاهر من النص أن ذا القرنين غَرَّبَ حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي، وكان يسمى بحر الظلمات، ويظن أن اليابسة تنتهي عنده"، وقال القرطبي: "ويجوز أن تكون هذه العين من البحر"، وبمثله قال أبو حيان والنحاس، ومقتضى كلامهم أن تلك العيون من لوازم المحيطات، وفي كل محيط عين حامية حمئة مما يتفق مع وجود فوهات تدفع بحمم الصخور النارية الداكنة خاصة في المحيط الغربي أو الأطلسي، وعلى هذا الوجه يكون في التعبير إيجاز حذف اكتفاء بشهرة معلوم؛ وهو مشهد غروب الشمس بالمحيط، وعبر عن المحيط بلازمه الذي لم تشاهده عين وهو شقوق قاعه، ولا يأبى السياق التقدير (وجدها تغرب في مرأى العين في محيط ذو عين حمئة)؛ أي يطفح قاعه بمواد نارية سوداء من عين في المحيط، فالمعنى أن البحر المحيط يدفع قاعه دوما بمواد ملتهبة قاتمة وهو ما يتفق مع الواقع بالفعل، وخص القرآن الكريم للمحيط الغربي أو الأطلسي بالبيان يتفق مع كونه المحيط المتميز بالصدع الأصلي والأعظم عندما كانت القارات كلها متصلة في قارة واحدة، وعلى هذا الوجه يتضمن النص إخباراً بغيب لا يعلمه بشر زمن الوحي يصف خفايا أعمق مما شاهده ذو القرنين وما يشاهده جميع الناس على سواحل المحيطات عند الغروب؛ والله تعالى أعلم.

Related references:

1. Evans, Rachel. "Plumbing Depths to Reach New Heights: Marie Tharp Explains Marine Geological Maps." The Library of Congress Information Bulletin. November 2002.
2. Hsü, Kenneth J. (1992) Challenger at Sea, Princeton, Princeton University Press, page 57.
3. Redfern, R.; 2001: Origins, the Evolution of Continents, Oceans and Life, University of Oklahoma Press, p. 26.
4. Alexander Hellemans and Brian Bunch, 1989, Timeline of Science, Sidgwick and Jackson, London.
5. Ewing, W.M.; Dorman, H.J.; Ericson, J.N. & Heezen, B.C.; 1953: Exploration of the northwest Atlantic mid-ocean canyon, Bulletin of the Geological Society of America 64, p. 865-868.
6. Heezen, B. C. & Tharp, M.; 1954: Physiographic diagram of the western North Atlantic, Bulletin of the Geological Society of America 65, p. 1261.
7. Hill, M.N. & Laughton, A.S.; 1954: Seismic Observations in the Eastern Atlantic, 1952, Proceedings of the Royal Society of London, series A, mathematical & physical sciences 222(1150), p. 348-356.
8. Edgar W. Spencer, 1977, Introduction to the Structure of the Earth, 2nd edition, McGraw-Hill, Tokyo.
9. "The Mediterranean Was a Desert" by Kenneth J. Hsü, illustration 13.